كم وضـــيعٍ رفَع النَّحْـــوُوكم مِنْ شَـريفٍ قـد رأيناهُ وضَعْ [1]

لم يحاول النحويون العدول عن الطريقة التى تلقوها من سيبويه، فظلت كتب النحو تعد لتحفظ وتستظهر مع أن الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بين ما لطريقة الحفظ والاستظهار وما عليها، ونادى بأن يتبع فى التعليم الاستنباط والتفكير مع عدم إهمال الحفظ فقط:

«وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز حتى قالوا: الحفظ عذق الذهن»[2]. ولأن مستعمل الحفظ لايكون إلا مقلداً، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة.

والقضية الصحيحة والحكم المحدود: أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه، ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعانى، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه، وقل مكثها فى صدرها»[3].

ولو أن النحويين أفادوا من دعوة الجاحظ تلك لبدت ملامح التغيير فى مصنفاتهم. لكن ميل ابن مالك إلى نهج نظم القواعد بأمثلتها جاء اتباعاً لما ورد عند ابن الحاجب والزمخشرى وسيبويه غير أن الفرق بين كل نحوى وأخر هو اختيار محور للتصنيف يختلف عن المحور الذى اختاره غيره.

غير هناك ميزة امتازت بها منظومة ابن معط، وهى إثارة اهتمام الطلاب وجلب انتباههم، وإثارة روح المنافسة بينهم بإثارة مسائل تحتاج إلى سرعة الخاطر وإلى الفطنة. وكأنه تربوى يغير من أسلوبه بين الفينة والفينة ليحصل على المزيد من اهتمام الطلاب بإثارة مثل هذه المسائل فيقول:

---

(١) حافظ البغدادى، تاريخ بغداد، ج ١١، ص ٤١٢، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣١م.

(٢) الجاحظ «رسائل الجاحظ» ج٣، ص ٢٩، اختيار عبد الله بن حسان، الخانجى، مصر، ١٩٧٩م.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩.